

قصة الكون في القرآن ومظاهر الإعجاز فيها

لا يخفى على أحد أن اهتمام الإنسان بقضايا الكون هو اهتمام قديم جداً، فقد اعتبر ذلك دليلاً على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، فمنذ فجر الإنسانية نادى نوح في قومه: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً و جعل القمر فيهن نورا، و جعل الشمس سراجاً﴾ [سورة نوح 15-16]، ثم تغيرت نظرة بعض الناس إلى ظواهر الكون فاعتبروها آلهة تعبد من دون الله تعالى

بقلم الأستاذ: خالد بن عمير
قسم الأدب - جامعة جيل

البر والبحر ﴿و بالنجم هم يهتدون﴾ [النحل 16] وما زال الفكر البشري يتطور حتى جعل من دراسة الكون العلم الأول والأخير، الأول باعتبار أنه يدرس أصل الوجود، وبالتالي أصل الإنسان ذاته وحقيقة وجوده، وهو العلم الأخير لكونه أصبح يدرس كذلك مصير الوجود ومآله، وبالتالي مصير الإنسان ذاته ومآله كذلك، وهذه هي الأسئلة الخالدة في فكر الإنسانية: من أين؟، و إلى أين؟، ولماذا؟، وهي الأسئلة التي جاء القرآن الكريم ليجيب عنها.

وما يهمنا من كل ذلك في هذا البحث هو معرفة كيف كان وصوف القرآن لهذا الكون، وكيف كان

فها هو ذا إبراهيم عليه السلام يبين لقومه أنها مجرد ظواهر طبيعية لا قدسية لها، قال تعالى: ﴿فلما جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رءا القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لنن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ [الأنعام 76-78]

ثم تطور الفكر البشري فاتخذ من النجوم علامات للاهتداء في ظلمات الليل أثناء الأسفار في

تصويره لظواهره؟ وما مظاهر الإعجاز فيه؟

بداية الكون

قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [السجدة 4].

إذا كان القرءان الكريم قد تناول قضية خالق الكون بهذه البساطة وبهذا الوضوح، إلا أن الناس قد جادلوا فيها جدالاً كبيراً، فقد صرح بعض فلاسفة اليونان أن العالم قديم لا بداية له، ومنهم الفيلسوف "ديموقريطس" (ق: 5 ق م). وسار على دربه أناس يحسبون على العرب والمسلمين، منهم "ابن الراوندي" (ت: 293هـ - 905 م). وأكد ذلك كثير من أصحاب المذاهب الإلحادية المعاصرة.

وظل الأمر على هذه الحال إلى أن بدأ هذا الكون يكشف للإنسان عن بعض أسرارهِ شيئاً فشيئاً.

فانتبه بعض العلماء ومنهم الألماني "كلاوزيوس" سنة 1865م

إلى أن كل جهد في الوجود يحتاج إلى تبديد كمية من الطاقة الحرارية، يستحيل استرجاعها بعد ذلك، وبما أن الحرارة لا تنتقل إلا من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، فإنه سيأتي يوم تتعادل فيه الحرارة بين جميع أجسام الكون، فيستحيل بعدها القيام بأي جهد ولا حركة، وذلك هو فناء الكون وموته¹. وبما أن الكون ما يزال قائماً اليوم و لم يصل إلى الفناء، فذلك يستلزم أنه ليس أزلياً إذ لو كان كذلك، لكان قد فني كذلك منذ الأزل. إذ يكون قد استهلك كل ما يحمله من طاقة ووقود منذ زمن بعيد.

ثم يتقدم البحث بالإنسان إلى أن يصل إلى نظرية "الانفجار الأعظم" على يد الفلكي القس جورج لوماتر سنة 1927، والتي يقول فيها إن الكون قد انطلق من ذرة أولية مكتفة جداً انفجرت و... ولد الكون²!

ثم جاء بعد ذلك علماء كثيرون أكدوا هذه النظرية وطوروها ونشروها³

ويرى بعض الباحثين في الآيات الكونية أن هذه النظرية تنطبق تماماً مع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء 30]

ومنه يتأكد لنا أن القرآن قد سبق العلم في قضية خلق الكون، وانتصر على

وبنفس الشكل تكونت سائر عناصر المادة المشكلة لهذا الكون.

ونشير إلى خطأ التعبير السائد في مختلف اللغات، وهو تعبير "السحابة الغازية" ذلك لأن من أهم صفات السحاب هو البرودة، بينما بداية الكون كانت بدرجة حرارة هائلة يقدرها العلماء بمئات الملايين من الدرجات (كفن) **

وهنا كذلك يتفوق القرآن على العلم المعاصر فيعبر عن هذه المرحلة من خلق الكون بالتعبير المناسب الذي لم يوفق إليه حتى كبار العلماء في ميدان الكونيات .

توسع الكون

قال الله تعالى: ﴿والسمااء مبنياها باءا وانا لموسعون﴾ [الذاريات: 47]

قال الزمخشري: "الأيد والآد: القوة، وقد آد يئيد وهو أيد. و"إنا لموسعون" لقادرون، من الوسع، وهو الطاقة، وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة"⁵

ويقول سيد قطب: "والسعة كذلك ظاهرة، فهذه النجوم ذات الأحجام الهائلة، والتي تعد بالملايين لا تعدو أن تكون ذرات متناثرة في هذا الفضاء الرحب"⁶. ويرى الزنداني أن هذه السعة

زعم الفلسفة بأزليته. وهذا أول وجه لإعجاز القرآن في هذا الباب.

مادة خلق الكون

قال الله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السمااء وهي دخان فقال لها وللأرض ايتيا طوعا أو كرها. قالتا أتينا طائعين، فقضيهن سبع سموات في يومين و أوحى في كل سماء امرها، وزينا السمااء الدنيا بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [فصلت: 11]

[12 -

يقول سيد قطب في الضلال في قوله تعالى "ثم استوى إلى السمااء وهي دخان: "إن هناك اعتقاداً أنه قبل خلق النجوم كان هناك ما يسمى السديم. وهذا السديم غاز.. دخان... وهذا الكلام قد يكون صحيحاً لأنه أقرب ما يكون إلى مدلول الحقيقة القرآنية"⁴، خصوصاً أن هذه النظرية تتأكد يوماً بعد يوم فالعلماء الفلكيون يرون أن الكون دخل مرحلة المادة بشكل أول غاز فيه هو غاز الهيدروجين وقد كانت درجة حرارته مرتفعة جداً إلى أن انصهرت ذراته مع بعضها وكونت غاز الهيليوم ...

عليه وسلم بهذا العلم بما يموج في الكون السحيق من مجرات تتباعد عن بعضها⁷ إنه الوحي الإلهي، ولا علاقة إذاً للكلام بفكر الرسول صلى الله عليه وسلم.

بنية السماء

قال الله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا، والسماء بناء﴾ [البقرة 22]

وقال جل جلاله: ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بنيها﴾ [النازعات 27-28]

وقال عز وجل: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد، ترونها﴾ [الرعد 2].

وقال سبحانه: ﴿خلق السموات بغير عمد، ترونها﴾ [لقمان 11].

كم تساءل الإنسان: ما الذي يحمل هذه الكتل الضخمة في الفضاء وما الذي يشدها في السماء؟ ولقد عبر القرآن عن ذلك بلفظ "البناء"، "و البناء يوحى بالقوة والتماسك، والسماء كذلك متماسكة لا تختل، و لا تتناثر نجومها وكواكبها، ولا تخرج عن أفلاكها ومداراتها، ولا تنتهادى ولا تنهار، فهي بناء ثابت وطيد متماسك الأجزاء"¹⁰.

ليست ثابتة بل هي في توسع وتمدد⁷ وبنفس الرأي يأخذ الجميلي⁸

ولعل مما يؤكد هذا القول أن حرف الميم في أول الكلمة يجعلها متعدية. فإن كان المعنى قادرون لقال: وإننا نواسعون. ولو كان المقصود هو أنها واسعة فقط لقال: جعلناها واسعة. بفعل ماض، ولكن اسم الفاعل هنا "موسعون" يحمل معنى الحال والاستقبال.

ومما يؤكد هذا الفهم كذلك الاكتشافات العلمية الحديثة، فقد اكتشف الفيزيائي الفلكي "إيدوين هابل"⁹ سنة 1929 أن المجرات تبتعد عن بعضها بسرعة تتناسب طرذا مع بُعدها، فكلما كانت المجرة أبعد، كانت سرعتها أكبر، وإذا قمنا بمحاولة تحديد مواقعها بالتراجع في الزمن، فإننا نجدها تتقارب من بعضها إلى أن تصل إلى التقائها في نقطة واحدة هي منطلق خلق الكون واتساعه. ومن هنا جاءت فكرة الانفجار الأعظم والتي ملخصها أن الكون كله بأرضه وسمائه كان كتلة واحدة ثم حدث فيها انفجار أدى إلى خلق المجرات وما فيها من كواكب ونجوم، وما تباعدها عن بعضها إلا أثر من أهم آثار ذلك الانفجار العظيم.

وهذا دليل آخر على عظمة القرآن وإعجازه، فمن أين لمحمد صلى الله

ولذلك قال "والسماوات ذات الحُبك" والحُبك في اللغة معناه الشد والإحكام مثل قولنا : ثوب محبوك¹³

ومن العجيب أن نجد من الملحدّين في هذا العصر من يتحدّث عن السماوات بألفاظ البناء إذ يقول أحدهم: "إن نظام الجاذبية في الكون يمثل الميلاط (الإسمنت) الذي يشد الكون ببعضه إلى بعض"¹⁴

وهذا كذلك دليل على أن القرآن كلام الله الخالق الواحد البديع.

مواقع النجوم

أقسم الله في كتابه على كرامة القرآن بمواقع النجوم! إذ قال: ﴿فَلا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة 75-80]

فما معنى هذا القسم، وفيما تكمن عظمته، وما غرضه؟

وقال ابن عاشور: "مواقع النجوم" جمع موقع يجوز أن يكون مكان الوقوع أي محالها من ثوابت وسيارة؛ أو مواضع غروبها، وذلك يذكر بالنظام البديع المجعول لسير الكواكب فلا يختل ولا يتخلف، وتذكر بعظمة الكواكب وذلك

هذا وللدارسين المحدثين للآيات الكونية تأملات خاصة في معنى البناء في الآيات الكريمات جدير بنا أن نتطرق إليها.

ومن ذلك الدكتوراة نعمت صدقي إذ تقول في آيتي "الرعد" و"القمان": "هذه الآية نفهم منها معنيين: معنى ظاهرياً ومعنى باطنياً، المعنى الظاهري: الله هو الذي رفع السماء بغير عمد مرئية، أي بعمد لا نراها و المعنى الباطني: الله هو الذي رفع السماء بغير عمد مرئية: أي بعمد لا نراها والمعنى الأول موجه لعوام الناس، إذ يرون السماء مرتفعة كالسقف ولكن دون عمد، والثاني موجه للعلماء إذ أن السماء مرفوعة بالنسبة إليهم بعمد ولكننا لا نرى هذه العمدة"¹¹.

يقول الجميلي: "لو أنه سبحانه وتعالى قال: "الله الذي رفع السموات بغير عمد قائمة" لضاع هذا المعنى البلاغي الجميل، ولضاع معه المفهوم الظاهر والمفهوم العلمي للآية كذلك، لكن الله حرص على وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب لأداء المعنى المناسب كذلك، ولا شك أن المقصود في الآية بـ"العمد" هي القوة الجبارة التي تجذب الشمس بها إليها الكواكب، وقوة الطرد المركزية المساوية لها في المقدار والمضادة لها في الاتجاه... وهذه هي الدعامة التي تثبت جميع الأجرام في الفضاء"¹²

وسديم "المرأة المسلسلة" يبعد عنا بـ 2,35 مليون سنة ضوئية¹⁸ أي أن الضوء المنبعث منه يحتاج إلى 23500 قرن من الزمن لكي يصل إلينا بتلك السرعة الهائلة للضوء!!

ثم إن هذه المواقع غير ثابتة فكل جرم مساره الذي يتحرك فيه في نظام عجيب.

كل ذلك وسط حشود هائلة من النجوم والكواكب فـ"مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدود، مجموعة واحدة هي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية تبلغ ألف مليون نجم!"¹⁹

فما أعظم القرآن الذي أشار إلى كل ذلك يوم لم يكن يفكر فيه أو يعلمه أحد إلا الخالق سبحانه وتعالى.

كل في فلك يسبحون

لقد تساءل الإنسان منذ القدم عن النجوم في السماء كيف هي معلقة ولماذا لا تسقط؟ فكيف كانت إجابة القرآن عن هذا التساؤل؟

قال الله تعالى: ﴿هو الذي خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، كل في فلك يسبحون﴾ [الأنبياء 33]، وقال:

أمر عظيم يحق القسم به الراجع إلى القسم بمبدعه وذكر "مواقع النجوم" على كلا المعنيين تنويه بها، وتعظيم لأمرها لدلالة أحوالها على دقائق حكمة الله تعالى في نظام سيرها، وبدائع قدرته على تسخيرها.¹⁵

ويقول الدكتور منصور حسب النبي: "... والعظمة إن كانت وصفا من الله سبحانه وتعالى كان تقديرها فوق مقدور البشر، فالمسافات بين النجوم هائلة، كما أن النجوم التي تبدو ثابتة في السماء تتحرك بسرعات جبارة، فضلا عن أن موقع النجوم وتحركاتها مرتبطة بقوة الجذب الهائل بينها طبقا لقانون الجاذبية العامة¹⁶ أي طبقا لتقدير الكتل الجبارة للنجوم والمسافات الشاسعة بينها، وغير ذلك من قوانين الفطرة والطبيعة التي ما زال معظمها فوق مقدور العقل البشري... أما عن المسافات بين النجوم، فيكفي أن نشير إلى أن أقرب النجوم إلينا بعد الشمس هو نجم "ألfa قنطورس" وهو يبعد عنا مسافة 4,4 سنة ضوئية¹⁷ والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء خلال سنة واحدة بسرعة تعادل: 300000 كلم في الثانية الواحدة، وهذا يستلزم أن الضوء ينطلق من هذا النجم، ويصل إلينا بعد أربع سنوات وثلاثة أشهر من لحظة انطلاقه!

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس 40].

نقل الصابوني عن الحسن أنه قال: "الشمس والقمر والنجوم في فلَك بين السماء والأرض، غير ملتصقة بشيء، ولو كانت ملتصقة ما جرت"²⁰.

وهي حقيقة علمية سبق بها القرآن²¹ وهو سبق كبير إذا علمنا أن القبط في مصر كانوا يتوهمون أن الشمس في سيرها مجرورة بسلاسل وكلايب²² وأن اليونان اعتقدوا منذ أفلاطون وأرسطو أن الكواكب والنجوم محمولة على كرات من الكريستال، وحتى كوبر نيك الذي أحدث ثورة في علم الفلك عام 1543 لم يزد على أن قدم وآخر في هذه الكرات المزعومة. وما بدأ هذا الوهم يتلاشى عندهم إلا مع الفلكي "جيوردانو برينو" الذي أنكر كرات الكريستال ووافق القرآن في وصف السباحة للأجرام فحكمت عليه الكنيسة بالموت حرقاً سنة 1600²³ أي أن سبق القرآن للعلم الحديث يعادل ألف سنة تماماً!!

ولقد اختيرت لفظة "يسبحون" بعناية، فهي أفضل -مثلاً- من كلمة "يطيرون" فمن أهم صفات السابح أنه ذو حركة تموجية صعوداً ونزولاً مع

موجات الماء، وكذلك حركة الشمس والقمر هي حركة تموجية جيبية ناتجة عن حركة الدوران. ومما توحى به هذه اللفظة أن السابح لا يسبح إلا وسط بحر بأواجه وكذلك الشمس والقمر والنجوم كلهم يسبحون وسط أمواج الجاذبية.

ضياء الشمس

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس 5].
وقال جل جلاله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا، وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح 16]
وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان 61].

ويلق الرافعي على تفاوت الناس في فهم الآية فيقول: "... وهذه الآية سمعها العرب فبعضهم يفهم من نسقها أن القمر نور والشمس نور، ولكن اختلف اللفظان ليكون في ذلك تنويع بليغ. ويعلو آخر في المنزلة، فيفهم أن القمر أضعف نورا من الشمس لأن هذه عبر عنها بالسراج، ولفظ السراج يحضر في النفس شعاعه المتقد فكأنه نور منبعث من نار. ويدقق بعضهم فيرى أن الغرض هو التعبير عن الشمس بأنها تجمع إلى النور الحرارة، ولذلك فائدة في الحياة، ولهذه فائدة

أخرى. ثم يفهم أهل القلوب الحديثة مع كل هذه الوجوه أن المراد من الآية إثبات ما تكشفت هذه العلوم من أن القمر جرم مظلم، وإنما يضيء بما ينعكس عليه من نور الشمس التي هي سراجها، إذ النور لا يكون من ذات نفسه ابتداءً، ولا بد من مصدر يبعثه²⁴

ولقد زادت الدراسات الكونية هذا المفهوم عمقا، إذ اكتشف أن الشمس ما هي إلا سراج ضخم يشتعل فيه الهيدروجين الذي يندمج مع بعضه في تفاعل نووري يعطي الهيليوم و يحرر طاقة نووية عظيمة تصلنا على شكل ضوء²⁵

فمثل هذا التعبير الذي يشمل الناس جميعا على مر العصور هو تعبير فريد من نوعه لم نشهد له مثيلا من قبل، وليس في طاقة البشر أن يأتوا بمثله، فهو الكلام المعجز المبين الذي لا يصل إليه كلام البشر، ولهذا ختمت الآية بما يناسبها: ﴿يفصل الآيات

لقوم يعلمون﴾ فالمشاهد التي تعرض هنا في حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد و المناظر²⁶

قال الله تعالى : ﴿فإذا برق البصر، وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر. كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر﴾ [سورة القيامة آ 7 - 12]

لنا أن نتساءل: لماذا بالضبط "يقول الإنسان يومئذ أين المفر؟" أي يوم يخسف القمر و يجمع الشمس والقمر؟ فالإنسان يلاحظ باستمرار أحداثا كونية هائلة، ولا يقول: أين المفر؟ فنحن نرى مثلا إلتهاب الشمس وتطايير فقاعات النار عليها، وأحيانا يصل إلينا شيء يسير من شواظها، ونحن آمنون مطمئنون، ونرى أجراما سماوية بأكملها تذهب نحو المجهول في ما يسمى بالتقوُّب السوداء ولا يصيبنا من ذلك الفزع. ورأينا في شهر جويلية 1994 اصطدام مذنب "شومخر ليفي" بكوكب المشتري ثم لم يصبنا الرعب. مع أن المشتري كوكب قريب منا نسبيا! فما ضرنا نحن على الأرض أن يجمع الله بين الشمس و القمر في السماء ؟

وتجيبنا الدراسات الكونية عن هذا التساؤل بأن معنى "خسف القمر" أي: توسطت الأرض بين الشمس والقمر، و منعت الأرض ضوء الشمس عنه. فإذا حدث هذا وحدث معه الجمع بين الشمس و القمر فهي الكارثة العظمى على الأرض الواقعة بينهما في هذه اللحظة. وخلق للإنسان في الجهة المقابلة للقمر

خسوف القمر

في رحاب القراءة والسمعة

النجوم، فقلنا إنها عبارة عن مصابيح توقد بغاز الهيدروجين الذي يتفاعل مع نفسه مشكلا غاز الهيليوم ومحررا طاقة نووية هائلة تصلنا نحن على شكل طاقة ضوئية... لكن مع مرور الوقت ينفد هذا الهيدروجين أو يقل فتقل حرارة الشمس فتتكمش الشمس على بعضها بفعل جاذبيتها فترتفع حرارتها مرة أخرى بفعل هذا الانكماش و الضغط الناتج عنه، فتعود إلى الانفجار فيتضخم حجمها لتملأ السماء بلون أحمر لعل هذا هو قوله تعالى ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن 37]، ثم تعود فتبرد فتتكمش ويخبو نورها، وكذلك الأمر بالنسبة لباقي النجوم²⁷

فإذا كان القرآن قد تحدث عن نشأة هذا الكون وبنيته فما هو ذا يحدثنا عن مصير أجرامه حديث الخبير العليم بأمره، وهذا دليل آخر على أنه من عند الله سبحانه و تعالى.

طي السماء وانهيار الكون

قال الله تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ. كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ، وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء 104]، وقال أيضا ﴿وَالْأَرْضَ جَمِيعًا مَبْضُغَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتِ

وهو متجه إليه، وللإنسان في الجهة المقابلة للشمس وهي متجهة إليه، حق له أن يقول "أين المفر"؟!.

لكن في مثل هذا الوضع بالضبط : لا مفر، بل إلى الله تعالى -يومئذ- المستقر. فهي نهاية الإنسانية، فينبأ الإنسان يومئذ بما قدم و آخر فإنه يوم القيامة ويوم الحساب. فياله من مشهد هائل ضخم يضطرب الإنسان حتى لمجرد تصويره، فكيف بمن يعيشه حقا؟!.

ومثل هذا التصوير لا يكون إلا من الله العليم الذي يعلم أوضاع الكواكب والنجوم والقمر.

انطماس النجوم

نجد في كتاب الله تعالى قوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات 8].

ونجد قوله: ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير 21].

إذا كان القرآن قد تحدث عن تكوير الشمس و انطماس النجوم منذ زمن بعيد فما أدرك الإنسان صدق ذلك إلا في أيامنا المتأخرة هذه ، فقد سبق وأن تحدثنا عن طبيعة الشمس وسائر

عودة السموات والأرض

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدِلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ [إبراهيم 48]. وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم 11].

وقال عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات 13-14].

إذا كان القرآن الكريم قد أكد على سهولة إعادة السموات والأرض بعد فنائها وأنه لا استحالة في ذلك، فإن كثيرا من العلماء المعاصرين الدارسين لشؤون الكون يؤكدون أن ذلك هو ما سيحدث فعلا بعد انهيار الكون، وهذا ما يطلق عليه عندهم بـ: "الكون الدوري" ودليلهم على ذلك أن الكون إذا انهار فإن عناصره الأولية التي انطلق تكوينه منها أول مرة كقيلة بإعادة تكوينه كما حدث ذلك في البداية²⁹.

ونعلق على هذا بتعليق النجاشي من قبل: إن حديث القرآن وحديث العلم ليخرجان من مشكاة واحدة³⁰ أليس قد قال الله تعالى في كتابه: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عِلْمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق 5].

مطويات بيمينه [الزمر 67]. وقال كذلك: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا، وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا. إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس 4].

لقد تأكد للإنسان - اليوم - بما لا يدع مجالا للشك أن هذا الكون آيل إلى الفناء، وهذا خصوصا مع إدراكه أن طاقة الكون الحرارية في تناقص مستمر، ولا بد أن يأتي يوم تفنى فيه هذه الطاقة فناء تاما، فيتلاشى هذا الكون ويندثر، وهذا ما يسمى بالقانون الثاني في علم الديناميكا الحرارية.

ثم مع ظهور فكرة الانفجار الأعظم وتوسع الكون، تساءل العلماء هل هذا التوسع دائم أم مؤقت؟ وأغلب الظن عندهم أن هذا التوسع لا بد له من نهاية يعود فيها الكون إلى الانكماش على نفسه إلى أن ينتهي بانتهيار أعظم (big crach) يعود فيها الكون إلى حالته الأولى التي ولد منها²⁸. ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ﴾

وإذا كان هذا الكلام في العلم يعد من النظريات فما هو القرآن يتحدى الناس أن يبرهنوا على عكس ما جاء به، فكثيرا ما نسمع من يقول إن الإعجاز العلمي مجرد ترديد لما توصل إليه الغرب في ميدان العلم، فما هو القرآن يأتي بالجديد، ويتحدى من يبطله.

خاتمة

إن قصة الكون في القرآن هي أطول القصص القرآني على الإطلاق، فقد صور القرآن الكون كإنسان يولد ثم يشب ويعيش ويتحاور ويتفاعل إلى أن يصل إلى الموت ثم لا يلبث أن يبعث بعد ذلك من جديد!

وهذا تصوّر وتصوير فريد من نوعه يجعل الإنسان المسلم ينظر إلى هذا الكون نظرة إنسانية رقيقة ورحيمة، فيسعى لأن ينسجم معه، ويعيش فيه ومعه في تناسق وانسجام.

وهذا التصور يختلف تماما عن التصورات الجاهلية الأخرى التي ترى في هذا الكون إلها يعبد تارة، وتارة عدوا يتقى، واليوم تنتظر إليه الجاهلية الغربية على أنه عبد يستغل ويضرب بالسياط ويعذب ويذل، ونتائج هذا التصور الأخير فساد كبير في البر والبحر وحتى في الجو والسماء.

إن هذه الآيات الكونية في القرآن بهذا الوصف المتفرد للكون قد أحدثت في العرب خصوصا، والمسلمين عموما انقلابا كبيرا في نظرهم لهذا الكون، ودفعتهم للبحث في ميدان الكونيات، والاستلها من دراسات

السابقين في هذا الميدان، والزيادة عليها والإبداع فيها، ولولا هذا لما كان للإنسانية -اليوم- هذه الإنجازات العظيمة في كشف أسرار الكون، وحل الكثير من ألغازه، إذ أنه ما بنيت هذه الإنجازات إلا على أساس ما خلفه المسلمون من بحوث وعلوم، كانت آيات الكتاب الكريم هي الدافع الأول للقيام بها.

أن القرآن الكريم في آياته الكونية قد خاطب الجميع على قدر عقولهم، فقد خاطب العربي البدوي بما يفهم ويدرك، كما خاطب الخاصة من الناس بما يشبع نهمهم الفكري والعلمي، فلم يكن تناول القرآن للكون تناولا ساذجا بسيطا - كما قال بذلك البعض - ولكنه تناول هذا الكون بأسلوب عجيب فريد معجز، يفهمه العامي فهما سطحيًا، لكن كلما كان عقل الإنسان أكبر كان تعمقه في فهم الآيات أشد، وكان إدراكه لمعان جديدة ممكنًا، فالعامي يأخذ المعنى العام من مجموعة الآيات، ولربما من السورة بأكملها، لكن الخاصة من الناس تجدهم يدققون في الجمل أكثر، بل وفي الألفاظ، بل ويصل بهم التدقيق إلى الحروف وإعرابها، والموسيقى ودلالاتها، ويقارنون بين هذا وذاك، حتى تتفتق لهم الآيات عن آيات وعجائب في باطنها.

وليس هذا غريبا ما دام هذا القرآن قد نزل بلسان عربي مبين قال عنه الشاعر:

في رحاب القراءة والسنة

أنا البحر في أحشائه الدر كامن

فهل سألوا الغواص عن صدقاتي

وهذا هو الإعجاز الذي لم يتمكن أن يرفع تحديه أحد من الجن والإنس من قبل القرآن ولا من بعده.

وأخيرا فإن أهم ما نستنتجه من هذا الجهد العلمي: أن موضوع هذا البحث هو موضوع ذو أهمية كبيرة لعمقه ودقته. وأن الحاجة لمواصلة البحث فيه حاجة ماسة لكن بتضافر جهود مختصين في ميادين مختلفة من بيان، وإعجاز، وكونيات...

وحسب هذا البحث أن أثار القضية، وطرح الإشكال، وأجاب عن بعض السؤال، وعسى أن تتاح الفرصة لي ولغيري أن يجيب عن بعضه الآخر، والله المستعان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب

العالمين

الهوامش

1- ميتشل ولسن: الطاقة، ترجمة: /، مؤسسة لايف، الولايات المتحدة الأمريكية، ط: /، ص: 69.

2- M. Kassab, Gloire à Dieu . Ou les mille vérités Scientifique du Coran, edition Salamat et Sarri. Alger, Algerie, 1990 tome 1, P : 139.

وأن أسلوب القرآن الكريم في تناوله لمظاهر الكون كان فريدا من نوعه كذلك، فلم يكن كأسلوب الشعراء الذين لا يحسنون إلا خطاب العاطفة بالآهات، وبث الزفرات واستعمال صيغ التعجب المختلفة... كما لم يكن كأسلوب العلماء والباحثين الذين لا يحسنون إلا خطاب العقل بالمصطلحات ونشر الأرقام والمعادلات. ولكنه جاء بحقائق كونية عجيبة ودقيقة، مجسدة في تعبير بياني جميل جذاب ورائق، فجمع بذلك بين الأسلوبين في محاسنهما وتجنب مساوئهما.

أن القرآن الكريم في تناوله الكون في سورة الأربع عشرة والمئة، وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة من النزول، لم يصدم بعضه بعضا في أي فكرة أو عبارة، بل إن المتأمل لآياته الكونية جملة واحدة لا بد أن يخلص بأمرين:

بنظرة كونية متكاملة الأطراف من ميلاد الكون إلى حياته إلى فنائه إلى بعثته.

وبلوحة فنية متناسقة الألوان، ونغمة موسيقية تتساب إيقاعاتها في انسجام لا مثيل له.

في رحاب القرآن والسنة

- 3- طه الدسوقي : عقيدتنا و صلقتها
بالكون و الإنسان و الحياة، دار
الهدى للطباعة، البلد: /، ط: 1405هـ
- 1984م ، ص: 158-159.
- 4- سيد قطب، في ظلال القرآن ، ج : 5 ،
ص : 3114.
- أنظر مثلاً تعبير عالم الكونيات "توان"
في كتابه "التغام السري" ص : 166.
- "كلفن" : سلم لقياس درجة
الحرارة إنطلاقاً من الصفر المطلق.
- 5- الزمخشري ، الكشاف، ج: 4، ص: 404.
- 6- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: 6،
ص: 3385.
- 7- الزنداني، كتاب التوحيد، منشورات
دحلب، الجزائر العاصمة ، الجزائر، ط : /
1992م ج : 3، ص: 68.
- 8- الجميلي، الإعجاز الكوني في القرآن،
دار الشهاب، باتنة، الجزائر ط: / 198م ص
: 122.
- 9- عفيف عبد الفتاح طباره، روح الدين
الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت،
لبنان، ط: 2 1985م .
- 10- سيد قطب، الظلال، مجلد : 6،
ص: 3816
- 11- نعمت صدقي، معجزة القرآن، ص:
37. (كذا في الأصل، ولا فرق بين
المعنيين)
- 12- الجميلي ، الإعجاز الكوني، ص :
128-129
- 13- نفس المصدر ، ص : 130.
- 14- Trinh Xuan Thuan- La mélodie
secrète p:125- 126
- 15- ابن عاشور ، التحرير ، ج : 27، ص:
330، 331
- 16- راجع موضوع "بناء السماء" في هذا
الباب
- 17- منصور حسب النبي، الكون ... ، ص
: 297
- 18- نفس المصدر. ص: 299.
- 19- سيد قطب، الظلال، المجلد : 6 ، ص :
3470.
- 20- محمد علي الصابوني، صفوة
التفاسير، ج : 3 ص : 15.
- 21- ابن عاشور، التحرير و التتوير، ج :
23 ص : 26.
- 22- المصدر السابق ج : 23 - ص : 25.
- 23- Thuan , La mélodie secrète , p
: 33-18
- 24- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز
القرآن، ص : 207
- 25- Jemes Mitchel - L'Univers p-25
- 26- (3 سيد قطب، الظلال، مجلد
3، ص : 1750

في رحاب القراءة والكتابة

27- حسب النبي ، الكون... ،
389-380 .

و أنظر كذلك : - Serge Brunier

28- حسب النبي ، الكون ، ص : 389.
29- تـوان ،التتـاغـم السـري ، ص : 270 و
كذلك د. جمال ميموني، و د. نضال قسوم ،
قصة الكون ، دار المعرفة، الجزائر
العاصمة، الجمهورية الجزائرية، ط : 1 ،
1998 م ، ص : 183.

30- عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن
هاشم، دار إحياء التراث العربي، بيروت،
لبنان، ط:5 ، ص:85-148.